المجاز بين البلاغة والعقيدة

يكثر الحديث عن ارتباط البلاغة العربيّة بمباحث أصول الدّين ، خاصة وأنّ القرآن الكريم هو أول مصدر للعقيدة الإسلاميّة ، وقد نزل بلغة العرب وبأسلوب بلاغي رفيع أعجز العرب الفطاحل أهل اللغة في زمان نزوله ، وقد احتدم النقاش بين الفقهاء والعلماء في مسائل العقيدة ، وكان جدالهم دوما يدور حول آيات تقف وراءها رؤية بلاغيّة ، تجعلها ضمن دائرة تجاوز العبارة العادية إلى عبارة إعجازية ذات بلاغة تفوق الكلام البشري .

1- المجاز بين المنكرين والمثبتين : نجد من ينكر المجاز في القرآن واللغة قد تمّ إفحامه ، والردّ عليه ، لأنّ طبيعة اللغة تأبى إلا أن يكون فيها مجاز ، ولا نجد في التراث العربي سوى أربعة أو خمسة من العلماء هم من أنكروا المجاز من أمثال : ابن تيمية ، والاسفراييني ، ومعهم ابن داود الظاهري ، وابن القيّم مشكوك في نسبة كتاب الصواعق المرسلة إليه ، لأنّه يناقض ما أثبته في مدارج السالكين ، ولهذا لا نكاد نعثر سوى على ثلاثة أو أربعة من العلماء هم الذين أنكروا المجاز ، ونجد الشنقيطي في إحدى رسائله ينافح عن فكرة إنكار المجاز ، وقد اتبعه في ذلك بعض أهل العلم ، ولكن الغريب أنّهم لمّا وضعوا كتبا في البلاغة ، وضعوا معها باب الاستعارة والمجاز المرسل ، ألم تنكروا المجاز ؟ فمابالكم لم تجدوا درسا بديلا عنه في علم البيان ؟ .

2- دراسات المجاز :

في كتاب كبير للعالم الدكتور عبد العظيم المطعني تحت عنوان : "المجاز في اللغة والقرآن الكريم " يصل المؤلف إلى نتيجة أن ظاهرة إنكار المجاز لم يصح فيها دليل قط، رغم شهرتها وكثرة اللهج بها، والكلمة الأخيرة في هذه القضية الحساسة، قضية المجاز بين الإثبات والمنع، أو الإثبات والإنكار هي الرأي أو القرار أو الحكم، أن ظاهرة المجاز في اللغة وفي القرآن العظيم إنما هي مجرد شبهة كتبت لها الشهرة، ولكن لم يكتب لها النجاح.

ونجد كتاب المجاز في البلاغة العربية للدكتور مهدي صالح السامرّائي ، وهو دكتور ومدرّس في كليّة الآداب في جامعة بغداد ، يدرس الظاهرة المجازية ، بين مظهرها العلمي والأدبي ، ويؤصل لتاريخ مصطلح المجاز .

ويظهر من الجزائر كتاب " كيمياء المجاز بين الخطاب القرآني والإنساني " للدّكتور بوعافية محمد عبد الرزاق ، الذي درس فيه المجاز وفق رؤية معرفيّة جديدة ، تستند إلى نظريّة الاستعارة ، مستمدّا من التراث العربي الأدبي والبلاغي في قراءته لفعاليات المجاز .

حقيقة "وقد بيّن في كتابه كيمياء المجاز ـ نقلا عنه ـ أنّ السلف فهموا الخطاب وكانت بين أيديهم بلاغة تمكّنهم من توجيه الفهم والبيان ، وكان عمدة البلاغة نحو يضبط منطق الفكر ، واليوم نحن مع إنسان عربي مسلم ، ولكنّه لا يجيد العربيّة ويأخذ قليلا من الأعجميّات ، فيمزج ويشكّل لسانا مشوّها لا يسمح بعرض الواقع ولا يسمح باجتياز معارج الفهم وتحصيل آليات التأويل المجازي مثلما كان عليه الوضع قبل قرون.

ويتساءل الدكتور بوعافية محمد عبد الرزاق : كيف نريد من قاضٍ أن يعرف الحقّ ولغته لا تقيم قسطاس الحق بين كلماتها ؟ كيف نريد من مسلم أن يستقيم على شرع ربّه وهو يقابل خطاب ربّه بجهل تام يقرأ ولا يقرأ ، يقرأ بالمرور بين السطور ، ولكنّه معطّل الفهم .

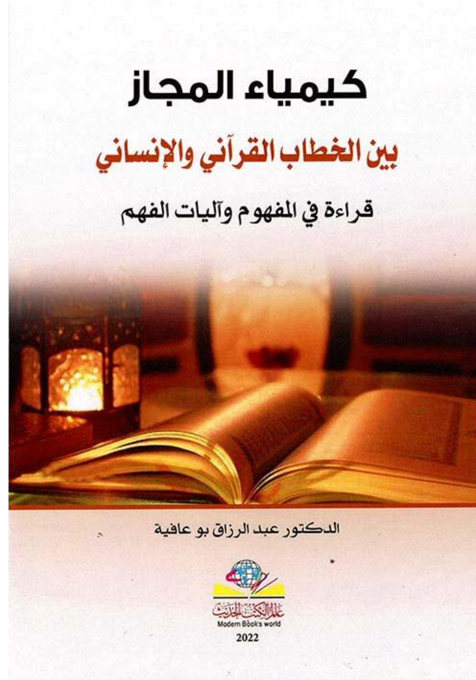
3- دور اللغة في فهم الخطاب وعلاقة البلاغة بهما :

يبيّن في كتاب كيمياء المجاز أنّ " اللغة سبيل إلى الفهم ، والبلاغة آلته ، والنحو خادم هذه البلاغة وكلّ من يزهّد في النّحو أو يلمزه فهو حاقد لا يؤمن جانبه ، إنّ افتقاد المسلمين لمنطق علم النّحو في لسانهم في بدايات العصر العبّاسي اتّفق مع ظهور الزّندقة والأفكار الهدّامة، ودوما أسأل : لماذا لم تظهر من قبل ؟ لأنّ السليقة اللغويّة والبلاغيّة كانت على نهج قويم (النّحو هو الطّريق).

لا سبيل لنا إلى فهم أنفسنا إلا بقراءة تراثنا الأدبي واللغوي منه خاصّة ، ثم نقرأ في ضوئه ما أنتجه الغرب ، فنفهم أين نحن ، وأين نسير ، وما واجبنا اتّجاه أجيال قادمة ، وإنّ إعاقة الفهم تتأتّى من إعاقة في اللغة ، وديننا مبني على شريعة لغويّة بيانيّة ، إنّها خطّة محكمة ليتعايش النّقل مع العقل بتوسّط البلاغة وعلوم اللغة وآلاتها.

وقد عرضت لحالة بلاغيّة في الخطاب السياسي عند الغرب ، وأردت إبراز طريقة تشكيل الوعي ببلاغة الاستعارة ، لنعرف جيّدا موقع مسالك الخطاب من العقل الإنساني ، لألج بعد هذا موضوع المجاز ، فقد طال بي الحديث في حواشيه،وكلّ من يحارب المجاز في الفهم والإعجاز والبلاغة هو يحارب لصالح

جهات لا نعلم عنها شيئا فتأخذنا الريبة من حاله ، لأنّ المجاز معراج الفهم وممارسة كيمياء الإنسان ، لا أفهم الإنسان إلا كائنا يفهم المجاز ، ويؤوّل العبارة .



4- مصطلح كيمياء المجاز : ظهر هذا المصطلح مع كتاب الدكتور بوعافية محمد عبد الرزاق ، ويقصد به الكيفيّة التي تنشئ العبارة المجازيّة أي الروافد اللغويّة والأدبيّة التي تجعلها تحقّق تجاوز المألوف من اللغة ، وطريقة تأثيرها / فعلها في المتلقّي وانفعاله وتأثره بها ، ويوضّح المؤلّف أنّ مصطلح كيمياء المجاز نقله من ميدان الكيمياء القديمة ، وأنّ " الكيمياء نصف الحكمة وهي نتاج الأسرار مثلما قال صاحب الرتبة .. الكيمياء يعرّفها القنوجي بأنّها "علم يعرف به طرق سلب الخواص من الجواهر المعدنية وجلب خاصية جديدة إليها وإفادتها خواصا لم تكن لها " كذلك يحوّل المجاز خواص العبارة اللغويّة وتظهر بفعل خفي دلالاتٌ أخرى أوسع وأعمق لم تكن لها من قبل،الكيمياء لفظ معرّب من اللفظ العبراني " كيم يه " بمعنى أنّه "مِن الله " كذلك المجاز ، موهبة ربّانيّة من الله على هذه اللغة الجليلة ، فتبقى حيّة وأنوارها أبديّة بالمعاني والدلالات والإنسان هو العالم الأصغر ، تتجلى فيه الحقائق الكبرى بقدر معرفته ، والكلمة لها قوّة الخلق والتكوين ، إنّ اللغة تحقيق لوجود الحقائق ، وكلّما عظمت الحقائق كلّما قامت اللغة بالتجاوز ، فالمجاز هو المظهر الأقوى لوجود المعاني" فمن خلال عباراته يتّضح أنّ المقصود من مصطلح كيمياء المجاز كيفيّة تحويل المجاز لخواص العبارة اللغويّة وتظهر بفعل بلاغي وبياني دلالات أخرى تنبثق منها وتتّسع ، فكيمياء المجاز مصطلح بلاغي جديد ظهر عند البلاغي الدكتور بوعافية محمد عبد الرزاق في كتابه كيمياء

المجاز ، قاصدا به فعاليات المجاز في توليد الدلالة والمعني جماليّا وإقناعيّا بماهو تأثير في المتلقّي وتأثّر به.